نص الكلمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الرئيس/ جوكو وي دودو رئيس جمهورية إندونيسيا

السادة العلماء والمثقفين ضيوف المؤتمر

الحضـور الكــريم!

السَّلامُ عَلــَـيْكُم ورَحْمَـةُ اللهِ وبَرَكَاتُه.. وبعد؛

فإن الموضوعُ الذي أَشْرُفُ بالحديثِ فيه اليوم هو موضوعٌ بالغُ الخَطَرِ والأهميَّة، رُغم ما حفل به من أبحاثٍ ودراسات لا تكاد تُحصى، ورُغم ما طرقته الأقلام في الكتب والصُّحف والمجلَّات والمؤتمرات، حتى بدا وكأنه لم يَعُد يَقْبَل مزيدًا من البَحْثِ أو النَّظَرِ من كَثرةِ ما قِيلَ فيه وكُتِبَ عنه..

هذا الموضوع، القديم الجديد المُتجَدِّد هو «الوسطيَّة» التي تَرِد دائمًا مقرونة بالإسلام، إضافةً أو وصفًا، فيُقال: «وسطية الإسلام»كمايُقال: إنَّه «دين الوسـطية»، ومن المعلوم لدى المسلمين جميعا، أن الله تعالى وصف هذه الأمة بأنها أُمَّة وسط فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، وأن النَّبيَّ ﷺ فَسَّرَ«الوَسط» في هذه الآية بأنه «العدل»، فقال: "الوسط العدل، جعلناكم أُمَّةً وسَطًا".

وقد قيل الكثير في تحليل معنى الوسطيَّة وارتباطها بالعدل وجوامع الخير انطلاقًا من الحديث النبوي السابق، واستنادًا إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. [القلم: 28]، فقد قال المفسِّرون: أي أعدلُهم وأخيرُهم، ومن هنا قيل: «كلُّ وسَطٍ خَيْرٌ، وكلُّ وسَطٍ أفضل من طرَفَيه دائمًا».

وكما قال الإمام الخطابي في كتابه العزلة: لَاتَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَمْرِ وَاقْتَصِدْ، كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ، ورُغم وضوح معنى «الوسط» في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة، وارتباطِه بمعنى العدل والخيريَّة، إلَّا أنَّ هذا المفهوم تعرَّض لما تعرَّضت له مفاهيمُ أخرى من اختلافٍ وتنازعٍ، مثل: مفهوم أهل السُّنَّة والجماعة، ومفهوم السُّنَّة والبِدعة، بل مفهومِ التَّوحيد الذي هو أصل الأصول وعمودُ خَيمةِ الدِّين، وليس من المبالغة أن أقول: إنَّ اختلافَ المسلمين في القرنين الماضيين حول هذه المفاهيم؛ كان من وراء ما أصاب الأُمَّة من فُرقة واختلافٍ وضَعْفٍ وغَرَقٍ في بحورٍ من الدِّماء.

ومما يُذكر عادةً في معرِض الحديث عن «وسطيَّة الإسلام» أن بعض العلماء قرن بينها وبين وسطيَّةِ أرسطو في الأخلاق، والتي اختصرها في قاعدته الشهيرة التي تُقرِّر أنَّ"الفضيلةَ وسط بين رذيلتين"، فالفضيلة عنده هي «الوسط»، ولكنه الوسطُ الذي يُشكلُ نقطةً متوسطة تمام التوسط بين رذيلتين، كلٌّ منهما تقعُ على مسافةٍ متماثلةٍ من هذا الوسط، فالشجاعةُ فضيلةٌ؛ لأنها وَسَطٌ بين رذيلتين هما: التهوُّر والجُبن، والكرمُ فضيلةٌ؛ لأنَّه وَسَطٌ بين رذيلتين هما: الإسراف والبُخل، والصبرُ فضيلةٌ؛ لأنه وسطٌ بين القَسوةِ والتَّبلُّدِ، وهكذا، فخِيارُ الأمورِ عنده أوساطُها، لكنَّها الأوساطُ التي تنتهي يمينًا وشمالًا برذائل هي شرورٌ وآثامٌ.

ولكن كثيرًا من علمائنا الأَجِلَّاء بيَّنوا خطأ هذا التَّوفيق أو التَّلفيق بين وسطيَّةِ الإسلام ووسطية أرسطو، ونبَّهوا إلى أن الوسطيَّةَ الإسلاميَّةَ ليست من هذا الباب؛ لأنَّ الفضائل الإسلاميَّة قد يَنطبِق عليها المعيار الأرسطي في نقطة التَّوسُّط في بعض الفضائل، وذلك حين يكون المسلمُ مُضطَرًّا لأن «يختار بين شر وشَرٍّ أهون منه»، فهاهنا تَظهرُ قِيمةُ الوسط أو الاعتدالِ الذي يَحسُنُ التَّمسُّك به، ولكن هذا المقياسَ الذي يُشبِه مقاييسَ الحساب والهندسة لا يَنطبقُ على كثيرٍ من نماذج الفضائل الإسلاميَّة التي لا يُمثِّلُ «الوسط» فيها ذُروةَ القِيمة الخُلُقية، فالكرَمُ في ميزان وسطية الإسلام لا يقال فيه: إنَّه فضيلةٌ لأنَّه وَسَطٌ بين رذيلتينِ، وأنَّه إذا بَعُدَ عن الوَسَط انقلب إلى رذيلةِ السَّرَف، أو رذيلةِ البُخل؛ وإنَّما الأمرُ على العكس من ذلك، إذِ الزيادةُ في الكرمِ –مهما عَظُمت وبَعُدَت عن الوسط- فهي كرمٌ كبيرٌ مطلوبٌ من القادر عليه، ومهما زادَ الكرم يظل فضيلةً مشكورةً لا توصَفُ بالسَّرَف أو التَّبذيرِ.. ومن هذا القَبيل ما رُويَ في الصحيح من أنَّ أبا بكر الصديقَ–رضي الله عنه- تصدَّقَ بكلِّ مالِه على جيش المسلمين، وحين سأله النبيُّ ﷺ«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

ومن هنا قيل: «لا خَيرَ مع السَّرَف، ولا سَرَفَ مع الخير»، وسببُ هذا الاختلاف هو اختلافُ المعيارِ بين الوسطيَّة الإسلاميَّة والوسطية اليونانية: مُنطلَقًا وغايةً، فبينما تُوَجِّه الفلسفة اليونانية وجهَها تِلقاءَ المال المبذول ومصلحةَ مَن يبذُلُه، تنظر الفلسفة الإسلاميَّة إلى «الباعثِ الموجِبِ ومصلحةِ المبذولِ له حتى لو تعارضتْ مع مصلحةِ الباذلِ في بعض الأحيان».

ويذهب بعضُ المفكِّرين المسلمين من المعاصِرين إلى أنَّ مفهومَ «الوسطيَّة والاعتدال» قد اختُطف في الأعوام الأخيرة إلى مجالِ ما يُسمَّى «الإسلام السِّياسي» وذلك حين عمَدَ بعضُ الكُتَّاب الغربيِّين إلى حَشرِ المسلمينَ كلِّ المسلمين في سَلَّة الإرهاب، بما يَستلزِمُ بالضَّرورة إفراغَ «الوسطيَّة والاعتدال» من معناهُما الشَّرعيّ إفراغًا تامًّا، وحتَّى حين ميَّز البعضُ الآخَرُ منهم بين الحركات الإسلاميَّة المتطرِّفة والحركات المعتَدِلة – فإنَّهم خَلَطوا خَلْطًا عجيب